التجربة الصوفية / الوهم والواقع

د. كواري مبروك

مخبر الدراسات الصحراوية

جامعة بشار ــ الجزائر

التصوف بحث عن الحقيقة الدينية، وبحث الصوفي جعله يرفض هذا العالم لزيفه ونسبتيه. فاعتزل نظام المجتمع الذي يعيش فيه. ومن هنا بدأت رحلة الاغتراب، العذاب، النفي، والنفور. التصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والزهد بالخلوة، والصوم، والصحو، والذكر، والتحلي بالفضائل؛ لتزكو النفس، وتسمو الروح لبلوغ الغاية الكبرى، البعيدة المتجلية في الاتصال بالذات الإلهية. الصوفي في رحلته هذه يتغير، ويتداخل وهمه بين الحقيقة والخيال، فهل يوفق في خوض هذه التجربة؟

Résumé:

Le soufisme est une investigation envers la réalité religieuse. Cette quête staphyline tend le soufi a dénie cet univers ; est prend des positions ferme vers le système de sa société.et delà commence le voyage de l'exil, le tourment, la dénégations…

Le soufisme est une voie comportemental qui se base sur le cénobitisme et l'austérité en appliquant des faits tel que la solitude , le jeune, la lucidités..pour que l'âme et l'esprit atteindrons la vérité spirituelle …ce voyage d'instabilité de perturbe la réalité , et fiction.. A ce stade le soufi en activant cette expérience peu mène une existence stable !

الصوفي إنسان يبحث عن الحقيقة. الحقيقة الدينية الفلسفية التي توحد بين الذات الإلهية والعلة الأولى والخير الأسمى[1]. في بحثه الدائم عن الحقيقة جعله، يرفض هذا العالم لزيفه ونسبتيه. وقد ترتب عن ذلك اعتزاله لنظام المجتمع الذي يعيش فيه ومن هنا بدأت رحلة الاغتراب، العذاب، النفي، والنفور. (الصوفي يسعى إلى القداسة، وإلى إشباع هذا الحنين الوجودي عبر اللغة القادرة على تجسيد هذا العالم الإلهي، والتي هي نوع من الخلق الفني، يحاكي ما صنعه الله في المرة الأولى حين خلق العالم. يتحقق به وجود الصوفي عندما يحيا به وفيه)[2] لبلوغ مرحلة التجلي التي فيها ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب [3]. والتصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والزهد؛ بالخلوة

والصوم والصحو والذكر والتحلي بالفضائل؛ لتزكو النفس، وتسمو الروح لبلوغ الغاية الكبرى، البعيدة المتجلية في الاتصال بالذات الإلهية. (هو الصلة التي تحدد العلاقة بين الله والإنسان حتى تصل به إلى حد الفناء والبقاء بعد الفناء)[4].؟ الصوفي يريد لنفسه شيئا آخر، غير الذي يجد نفسه فيه. يريد أن يوجد على صعيد آخر، إنه يصنع نفسه باقترابه من النماذج الإلهية وهذا جوهر الصراع داخل المتصوف بين المألوف الدنيوي؛ صيرورة الزمن المنتهي إلى زوال؛ وبين الخاص المقدس؛ الزمن والمكان اللامنتهي؛ بين الوجود الأرضي والوجود المطلق؛ بين البشري والإلهي؛ بين الحياة والموت[5]

التجربة الصوفية

التصوف رؤية للحياة وفلسفة للوجود. إنه كيفية في التعاطي مع الحقائق الكونية، والقضايا الإنسانية في جميع مناحي الحياة السياسية والأخلاقية... التصوف موقف رافض للمظاهر السلبية، محفز على تصحيح مواطن الاضطراب والاعوجاج في مسار الحياة التي يخوضها المريد الخاصة به وبمحيطه...

المستوى السياسي

التصوف نزوع رافض لكل أشكال الاستبداد والفساد السياسي: التنازع على السلطة والطغيان والتعالي والظلم والإذلال الآخر وقهره... هو سعي إلى الرجوع إلى الفطرة عبر ممارسات وسلوكات تدعو إلى تهدئة أجواء الاحتقان السياسي والتخفيف من مظاهر الاستبداد المستشري بين الحاكم والمحكوم في انتزاع السلطة والاستمرار فيها بإزالة المنافس من طريقه بشكل من الأشكال بطريقة مشروعة أو غير مشروعة على المستوى الأخلاقي

التصوف تصحيح للسلوك المرضي القائم على حب الدنيا والتفريط في الآخرة، بتكريس مبدأ العدل وضبط النفس والسعي إلى إحداث توازن بين القيم الأخلاقية والمادية.وقوة التصوف في المجال الأخلاقي ليست في محاولته علاج الأوضاع الفاسدة (الجشع الكسب الغير مشروع، الاحتيال، المكر الغش، الكذب...) بقدر ما هي كامنة في طريقة تعامله مع هذه الأوضاع وطريقة علاجه لهذه الأمراض. فهو يستعين بمجموعة طرق وسلوكيات تراكمت عبر الحقب في الفكر الصوفي.. إن الحديث عن التجربة الإنسانية والإبداع، تدعو إلى التأمل في تركيبة الإنسان النفسية

والعقلية والبيولوجية لفهمها، وكشف أغوارها. نلتمسها في إحدى مناجاة الحلاج وقت الصلب. وقت الخوف والهلع وضعف النفس البشرية في تحمل الموت وانتظاره؟ يوم مقتله، بينما كان الحلاَّجُ مشدوداً على الصليب الخشبي وقبيل حَزَّ رقبته نظر إلى السماء مناجياً ربه قائلاَ:

هَؤَلاَءِ عِبَادُكَ..قَدْ اجْتَمَعُوا لِ قَتْلِي تَعَصُّباً لِدِينِكَ

وتَقَرُّباً إِلَيْكَ..

فاغْفِرْ لَهُمْ !

فإنكَ لَوْ كَشَفْتَ لَهُمْ مَا كَشَفْتَ لِي.. لما فَعَلُوا ما فَعلُوا

ولَوْ سَتَرْتَ عَنِّي مَا سَتَرْتَ عَنْهُمْ.. لما لَقِيتُ مَا لَقِيتُ

فَلَكَ التَّقْدِيرُ فِيما تَفْعَلُ... ولَكَ التَّقْلِيرُ فِيما تُرِيدُ[6].

فللوهلة الأولى ندرك أن هذا الشخص الذي يواجه الموت بقلب خاشع متبتل، ونفس هادئة مطمئنة ليس إنساناً عادياً، ومن هذه الزاوية دخلت التأويلات التي تفسر غرابة هذه المواقف من طرف هذه الفئة من البشر.فما السر في ذلك

يعيش الإنسان تجارب متنوعة في حياته، طوال تنشئته الاجتماعية. يتشكل وجدانه وتصقل مواهبه واستعداداته وتتوسع مداركه العقلية. وبهذا الطريقة ينسجم في مجتمعه، ويعش حياة عادية، لكن المبدعين لهم نزعاتهم الخاصة في التعامل مع الواقع، والوقائع. فإحساسهم المرهف، وحدة الذكاء لديهم، وميولهم الفطرية، والوجدانية تجعلهم متميزون في التعبير عن تجاربهم في تعاملهم مع الآخر، فهم لا يعبرون إلا بعد استبطان الواقع الذين يعيشونه، ومن خلال تفاعلهم مع هذا الواقع تكون الاستجابة. لأن المبدع إنسان موهوب له استعداد خاص، وقدرات عقلية تمكنه من الملاحظة الدقيقة لصغائر الأشياء والتعبير عنها بلغة فنية راقية.

إن المتصفح لتاريخ الأدب العربي، يقف على ظاهرة الإبداع في علاقتها بالواقع والتحولات الاجتماعية، والهزات الثقافية التي اعترته عبر الحقب التاريخية المتعاقبة. لأن التجربة التي تعتري المبدعين بعد الانقلابات الثقافية والسياسية، التي تحدث نوعا من القطيعة الإبستيمية مع الواقع، تجعلهم لا يتكلمون إلا بعد استبطان هذا التجربة بمفاهيمها، ورؤاها الفكرية والفلسفية، لينطلق

عقال العقل، ويتكلموا، وينتجوا لغة جديدة، ونمط تفكير مغاير لما قبل. فيتكلمون في غفلة من الرقيب. والقضية نفسها تنبسط على المتصوفة الذين يدخلون تجربة جديدة، تؤهلهم لإنتاج معرفة جديدة، ولغة خاصة، هي محصلة التجربة التي تجمع بين العلم والإيمان. يقول الحلاج في هذا المجال:

للعلم أهلٌ وللإيمان ترتيبُ وللعلوم وأهليها تجاريبُ

والصوفي في رحلته المضنية لبلوغ مرحلة التجلي، يمارس طقوساً خاصة تؤهله لامتلاك الحقيقة التي ينشدها بإتباع نظام صارم في حياته، يتجلى هذا في اعتزال الحياة العادية للإنسان بالصمت والجوع والسهر والخلوة وهي رياضة النفس التي يمارس بها تجربته في رحلته نحو الصفاء والسكينة لتخليص نفسه من أدران ووحل الأرض، فوتصفو من شوائب التراب، لترقى إلى ملكوت السماء، إلى الرحب والسعة، واللذة الأبدية. في هذه الرحلة الشاقة المضنية تتغير مجازاته التي بها يتفاعل الإنسان مع واقعه، وبها يدرك مجريات الحياة، بهذه الآلية نستطيع القيام بكل العمليات العقلية (نتخيل نتوقع، نستنتج نقرر، نفهم نفسر نؤول نقتنع ونقنع ونحاجج...) إن تغير مفاهيم الإنسان للحقيقة والوجود، والذات والآخر، والعالم والتجربة، واللغة والعقل، يتم عبر تغيير مجازاته التي بها يتمثل هذه المفاهيم[7]

التجربة الصوفية (هي إعادة قراءة للمفاهيم السائدة، وتحاور معها.حالة قائمة على الصدام مع المسلمات والتواصل مع المطلق بكل أشكاله، للوصول إلى جوهر العلاقات في الفن والإنسان والوجود)[8] تجعل السالك ينتقل من حال إلى حال، ومن موقف إلى آخر، ومن رؤية للكون إلى رؤية أخرى. (وهي ليست مجرد تجربة في النظر، وإنما هي أيضا تجربة في الكتابة)[9]، ويكون المجال التعبيري أو النظري لدى الصوفي، هو وحده مجال الأخذ والرد، والقبول أو الرفض، والبوح بالتجربة الروحية، ومواجدها التي تعجز العبارة عن الوفاء بها[10].

هذا التحول على المستويات الوجدانية والعقلية والجسدية، يضع السالك في موقع جديد، ورؤية جديدة في تعالمه مع مجريات الواقع، الذي يعيش فيه. فتتغير مجازاته، ويصبح له منطق خاص مغاير لبيئته، وثقافته التي نشأ فيها وشكلته. وتصبح له تعابير خاصة ولغة مغايرة، لا يفهمها إلا الصفوة من المفكرين. هي لغة عصية الفهم على العامة والخاصة. هي محصلة التغيير الجسدي

والروحي والعقلي، الذي أصبح حال السالك نتيجة المجاهدات (الصوم والصحو والصمت)، كثرة العبادات الجوع وقلة النوم والذكر. فتصقل الروح من أدران الماديات، وتسمو إلى مجال الروحانيات عالم الحدس واللامنطق، عالم الذوق. فعيش السالك في فضاء له منطقه الخاص في التحليل والتعليل والتأويل والبرهان...

هي تجربة مرتبطة بالجمال والانفلات من قيود العقلانية، وقيود المألوف في التعامل مع الأشياء[11]. فينتج لغة هاربة متوثبة متملصة من كتلتها المعنوية تبحث عن أفق دلالي يحتويها، تنبثق منه إوالية دلالية متراكمة، متجهة نحو أفاق الترميز، الذي يصبغها بالضبابية والغموض. هذه اللغة هي ملاذ المتصوفة؛ يعبرون بها عن مدركاتهم بالبصيرة؛ متجاوزة المألوف، خارقة للعادة، والدليل المنطقي الحجاجي، البرهاني السجالي. هي لغة ذوقية عرفانية، تحمل خلف معانيها المعجمية أسراراً، تحتاج إلى كشف، تأويل يتجلى في الإشراقة التي تنقدح في القلب. هي رمز، (وهذا الرمز لا يوجد في التركيب، بل يوجد في الكلمة المفردة، بل يوجد في الحرف الواحد)[12]. وأن خطابها خارج المعايير، وإن بدا أنه داخلها. هذا الوضع أفرز قاموساً لغوياً خاصاً. رافق هذا التيار منذ ظهوره، بدأ يطفو مع شطحات أبي زيد البسطامي المتوفى سنة 261هـ. هي لغة عباراتها غريبة ظاهرها مستشنع وباطنها مستقيم[13].

إن التجربة الصوفية أربكت المعجم اللغوي العربي مبكراً، لما شحنت الدوال بمدلولات جديدة، لم يعهدها المؤولون لكلام العرب. وهذه التجربة اتجاه مبكر، سابق لعصره من المتصوفة في الثقافة العربية، التي أفرزت إشكالية علاقة الدال بالمدلول، وانزلاق الدلالة. التي لا تزال محط اهتمام فكر ما بعد الحداثة ؟ قال أحد المتصوفة في وصف حالهم:

إذا نطقوا أعجزك مرمى رموزهم وإن سكتوا هيهات منك اتصاله[14]

وانشدوا لبعض الكبار الصوفية في وصف حالة السالك والمريد في عتبات التصوف بين الحقيقة والوهم

كفاك بأن الصحو أوجد كآبتي فكيف بحال السكر والسكر أجدر

فحالاك لي حالان صحو وسكرة فلازلت في حالي أصحو وأسكر

وهكذا يكون السكر عند الصوفية مختلفاً عن السكر الناتج عن الخمر المادية في كونه يعقبه الصحو، ولا يعنى الصحو هنا مفارقة حالة السكر بصورة تامة، وإنما الترقي إلى حال أرقى هو حال"صفاء العشق والذوق بأحذية الجمع والفرق."فهل يعقل أن يعيش الإنسان الذي يمارس حياة عادية هذا الوضع وهل يطيقه ويؤكد ابن عربي هذا المعنى في قوله

واشرب سلافة خمرها بخمارها واطرب على غرد هنالك ينشد

وسلافة من عهد آدم أخبرت عن جنة المأوى حديثاً يسند

حملت كتب التراجم، العديد من صرخات الحلاج.. مثل زعقته في أسواق بغداد: أيها الـنـاس، اعلموا أن الله قد أباح لكم دمى فاقتلوني، اقتلوني تؤجروا وأسترح، اقتلوني تكتبوا عند الله مجاهدين وأكتب أنا شهيد.

مُـزِجَتْ روحك في رَوحي كما تُمزَجُ الخمـرةُ بالماءِ الزِّلالِ[15]

فأنت ترى في هذا القول ما يثيرك ويربك مفاهيمك بما فيه من غرابة التأليف والتركيب الدلالي وهو يخاطب من يخاطب الله جل جلاله ؟

ونلمس الهوس نفسه عند رابعة العدوية في إحدى مناجاتها

أحبك حبين حب الهوى.... وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى.... فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له.... فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي.... ولكن لك الحمد في ذا وذاك

ولها شطحات أخرى في قولها

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحبيبي دائماً في حضرتي

لم أجد لي عن هواه عوضا وهواه في البرايا محنتي

حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي، إليه قبلتي

وإن أمت وجداً وما ثم رضا وأعنائي في الورى! وا شقوتي

وينهج ابن الفارض نفس الطريق في التعبير عن أوهامه ولبيان حقيقة ذلك يقول:

أصلي فأشدو حين أتلو بذكرها وأطرب في المحراب وهي إمامي

وبالحج إن أحرمت لبيت بأسمائها وعنها أرى الإمساك فطر صيامي

وشأني بشأني مغرب، وبما جرى جرى وانتحابي معرب بهيامي

يوجه الضمير في قوله ذكرها"إلى المحبوبة الحقيقة والحضرة الإلهية"وفي هذا دلالة على أنه إنما يعيش هذه المناسك بروحه لا بجسده، فالحج رمز للسفر الروحي وأول مراحله الحسية التي رأى فيها"البيت العالم وإدراكه إدراكا حسيا، وفي الحج الثاني أدرك البيت وصاحب البيت أي إدراك"الاثنينية"إدراكا عقليا، وفرق بين الله والعالم، وفي الحج الثالث أدرك بقلبه شهوده الكل الذي لم يميز فيه بين البيت وصاحب البيت، فمراتب الحج ثلاث إدراك الحسي فإدراك عقلي فشهود قلبي، أو فردية فاثنا نية فوحدة مطلقة تنمحي فيها الكثرة العقلية والحسية

يقول أحد المتصوفة

مريدي لا تخف واعلم بأني

قريب السر من مولي الموالي

مريدي طب وهم واشطح وغني

وافعل ما تشاء فالاسم عالي

مريدي إنني أدعي الدسوقي

وشيخ المصطفي كاسي ملالي إن الصوفي يعيش تجربة وجدانية شديدة الخصوصية يتحد فيها بخالقه اتحادا شهوديا، تتجلى له الذات من خلاله وتتكشف له الحقائق والأسرار... التي لا توهب لأحد غير العارفين والأولياء؛ لأن السر عند أئمة الصوفية هو الذي ينفرد به الأولياء والعارفون بالله بما أودعه الله في قلوبهم من الأسرار الإلهية والحقائق الربانية التي لا يعرفها إلا أحباء الله ،ولذلك كانت هذه الأسرار مما يجب سترها على العامة"الذين لا يفهمون مقاصدهم ولا يتحملون أسرارهم.،لأن"عبادتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية على حد قول ابن عطاء الله في حكمه ومن ثم قال الشاعر :

لم يكتم السر إلا كل ذي ثقة فالسر عند خيال الناس مكتوم

ولذلك لجأ الصوفي إلى أسلوب الستر واصطنعوا أسلوبا رمزيا شيقا وشائكا في الوقت نفسه، يعبرون من خلاله عن مكنون نفوسهم وأنات قلوبهم وحالات الوجد والشوق والغيبوبة التي تمر بهم.

1ـ التجربة الباطنية

2ـ التجربة الغيرية:

3ـ التجربة بالقدوة:

4ـ تجربة معيشة:

5ـ تجربة التجربة:

ـ التجربة الباطنية:المراد بالتجربة الباطنية التربية التي لا تكتفي بتعليم مهارات أو معارف محددة عبر آليات التلقين والاستظهار لأن هذه الطريقة عاجزة عن تهذيب سلوك الفرد والارتقاء به إلى معانقة مستويات عليا من النضج الفكري والتجربة الحضارية.فالتجربة الصوفية تركز على الأبعاد التربوية لأن من مقاصد التجربة الصوفية تغيير سلوك الفرد من خلال الربط بين الظاهر والباطن بمجاهدة النفس وإصلاحها برغبتها، وبدافع من تعاليم الفكر الصوفي الذي يسعى إلى تجسيد مقاصده في المريد في الجلوة والخلوة " الظاهر والباطن ". فكان الاهتمام منصباً في هذه التجربة على شحن المريد بمفاهيم ومعارف لها تأثير مباشر في تربيته، وصقل نزوعه السلوكي – الظاهر والباطن – فاهتموا بالأخلاق النفسية، السلوك في مظاهره العقلية والوجدانية (السلوك النفسي) كالغيرة والحسد والحقد والتواضع والمحبة والإيثار والجشع...وغيرها من السلوكات الباطنية التي يستعصى علاجها. وترويض النفس على الابتعاد عن هذه الأمراض التي تبعد المريد عن الوصول والارتقاء والصفاء والتوحد...وهذا النزوع سر نجاع التجربة الصوفية.وعز قوة نفوذها وتأثيرها.وقد حدد الدكتور عبد الرحمن بدوي عناصر ضرورية لوجود ظاهرة الشطح هي:

أولا شدة الوجد،

وثانيا أن تكون التجربة تجربة اتحاد؛

وثالثا أن يكون الصوفي في حالة سكر؛

ورابعا أن يسمع في داخل نفسه هاتفا إلهيا يدعوه إلي الاتحاد، فيستبدل دوره بدوره

وخامسا أن يتم هذا كله والصوفي في حالة من عدم الشعور، فينطق مترجما عما طاف به متخذا صيغة المتكلم، وكأنه الحق هو الذي ينطق بلسانه.

أما الشطحة نفسها فتمتاز بعدة خصائص منها: أنها بصيغة ضمير المتكلم، وإن كان هذا الشرط غير متحقق باستمرار، وأنها تبدو غريبة في ظاهرها، لكنها صحيحة في باطنها، أو علي حد تعبير السراج"ظاهرها مستشنع"، وباطنها صحيح مستقيم

مراجع البحث وإحالاته

1 – محمد يعيش: شعرية الخطاب الصوفي ص: 90

2 – –سحر سامي:شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية امحي الدين بن عربي ط 20005 الهيئة المصرية العامة للكتاب ص79

3 – أبو حامد الغزالي الإملاء في إشكالات الأحياء بيروت ص16 والتجلي نوع من المعرفة المحتجبة عن الإنسان العادي يدركها المتصوف

4 – فريد الدين العطار: منطق الطير دراسة وترجمة بديع محمد جمعة دار الأندلس ط 2002 بيرون ص82

5 – سحر سامي:شعرية النص الصوفي. م س ص 78 نقلا عن مرسيليا إلياد: المقدس والدنيوي ت نهاد خياطة ط1 دمشق 1987ص63

6 – ديوان الحلاج، تحقيق كامل مصطفى الشيبي بيروت بغداد 1973. ص 11

7 – علي الديري:مجازات بها نرى. موقع رقمي

8 –سحر سامي:شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية امحي الدين بن عربي ط 20005 الهيئة المصرية العامة للكتاب ص55

9 – م س:ص:54

10 – كمال الدين القاشاني: اصطلاحات الصوفية تحقيق وتعليق محمد كمال طبعة الهيئة العامة للكتاب مصر 2008 من المقدمة ص 6

11 سحر سامي شعرية النص الصوفي ص59

12 – محمد يعيش:شعرية الخطاب الصوفي. ص: 7

13 – عبارة لأبي نصر السراج الطوسي في كتابه " اللمع في التصوف " ت عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ط 1960

14 – نقلاً عن ناجي حسن جودة:المعرفة الصوفية:ص129

15 – ديوان الحلاج ص82